

حافظ وشوقي

تعارفهما التاريخ

دواوين شعري زاخرة بألوان شتى من انثر التاريخي لان شوقياً - كما قلنا - كان مؤرخاً بطبيعته كما هو شاعر بسليقته... ولكن أبرز ما في الجانب التاريخي من شعره قصيدته الرائعة «كبار الحوادث في وادي النيل» التي فتحت بها الجزء الأول من دواوينه وهي التي قلنا في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة «جنيف» في سبتمبر عام ١٨٩٤ حينما ذهب مندوباً عن الحكومة المصرية ، وكان لم يبلغ الثلاثين من عمره . وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة تسعين ومائتي بيت من قافية واحدة ، عرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور الى عهد انظما ، وكان في عرضه للاحداث فناناً قبل أن يكون مؤرخاً سارداً للاحداث ، فهو ينسرب من بين فرجات الاحداث لباتي بالحكمة سرعة الومض قوية التعبير ليس فيها زيّد ولا طغيان على العرض التاريخي لتكون منها وثبة تضليل وتثقل وتكر والتأمل ، فانت ترى مواكب التاريخ منتظمة آخذة برقاب بعضها في انظام قوي ساحر لا يمل .

ولشوقي ميزة في هذا اللون من شعره ، فهو بكلمة واحدة أو كلمتين أو شطرة من الشعر يسوق لك مواكباً تاريخياً طويلاً تستعرضه في شعره في ملح البصر وتكاد تشعر أن لم يفُتْك من هذا الموكب شيء دقيق .

وهذه القصيدة - على حدّ تصوير الدكتور محمد حسين حبشي بك (باشا) - «رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الهراتنة الى عهد أبناء محمد علي» وذلك فيها الشاعر وقفة مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . أي منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ . وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممجلاً الناس تغزراً بتجد مصر حين يوقع بها الجهد الى عليا ذراه ، آمناً «وينا» حين تمرّ بمصر فترات فلم ودقة ،

متفرقاً لهم حائزاً نعرائم أمن جيداً والأحيال التي سده في يعبدن. عبد الحاسي وحشته . . .
 وترامني انتقاله من الفجر إلى الأصفى إلى الامتداد يسير مع الخلود متدفقاً متدفقاً فوق
 مرج الماضي آتياً عن لانهيات القيد كأننا هو قبارة آلهة ذلك الزمان انعميد يدفع إليها
 كل جبل نساعه فتحنق وتحنق بأهارج النصر تارة وترانيم المرّة ضوراً وينحدر الألم
 أحياناً ، (١)

عني أن التاري طهه القصيدة لا يس فيها - على طول هذا العرض التاريخي - جفاناً ولا
 خروجاً على الروح شعري، فقد كانت تنبئة شوقي الداعية فيها أكثر سيطرة على الموقف
 من فنونه التاريخي . ويرى الأستاذ عبد الحميد العبادي بك أن شوقياً كان « في هذا
 المجال يخطو فوق قمم الجبال وقتل يهبط إلى القيعان والأودية . وهذا طبيعي فلما مقام
 الدر لا مقام التاريخ بعناه الطلي » (٢)

وقد استهل شوقي قصيدته بوصف رحلته في البحر وقال في مطلعها :

عَمَّتِ السُّلُكُ واحترأها الماءُ وحداها عن نُقْلِ الرِّجَالِ

ثم بدأ يخاطب البحار ليخاطب من هذا الخطاب إلى انقصر حيث يقول :

قُلْ لِبَانِ بَنِي فِدَاءٍ فَتَالِ لَمْ يَجْزِ مَعْرِ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ

ليس في المكنات أن تنقل الأجسام فما وأن تنال الحمد

أجفل الجنُّ من عزائم فرهم ن ودانت لبأسها الآفة

شاد ما لم يسيّد زمان، ولا أنشأ عصر ، ولا بنى بشاء

هيك من الديانات فيع في والناس والقرون هباء

وقبور تحطّ فيها التيالبي ويرأى الإصباح والإمساء

تشفق الشمس والكواكب منها والجديدان واليكنى والثناة

تعدر الحاسدين فيها إذا لا موا فعب عن الخلود التناة

زعموا أنها داهم شيدت بيد النبي ملؤها ظلاء

(١) من مقدمة الدكتور ميكل : طاش الجزء الاول من التوثيق

(٢) مجلة الكتاب ٤ - من ١٩٨٢ الجزء الثاني - أكتوبر سنة ١٩٧٧ ، السنة الثانية

دُمِرَ الناسُ والرعية في تشييدها وإخلاق الأُسرة
 أين كان القضاء والعدل والحكمة والرأي والشه والذكاء ؟
 وبنو الشمس من أحرّة مصر والمعلم التي بها يتضال
 فادعوا ما ادعى أساغر آتينا ودعوا من نحننا وانفرا
 إن يكن غير ما أتوه نغار فأننا منك يا نغار برا

ثم ينتقل شوقي بين عصور التاريخ السحيقة فيعرض لنا لوحات زامية الألوان ولوحات
 أخرى قائمة ، حتى يوفي على النهاية وقد اجتمعت له حدة منها تتفاوت في مفتها كما تتفاوت
 في ألوانها حسب النظام أو النحو الذي يفرض العصر .

فإذا طلعتنا في ديوان حافظ أثر التاريخ المصري القديم في شعره وفتنا على قصيدته
 « مصر » التي أنشدنا في الحفل الذي أقيم بفندق الكونتنتال لتكريم المرحوم علي يكن
 بانها بعد عودته من أوروبا فاطمًا المناوضة مع الأنجليز ومستقبلًا من الوزارة ، وقد
 نشرت هذه القصيدة في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢١ وجمها على لسان مصر تتحدث فيها
 عن نفسها ، وقد بدأها بهذه الآيات :

وقف الخلق بنظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
 وبناة الأهرام في سالف الدهر كفسو في الكلام ضد التعدي
 أنا تاج العلام في مفرق الشرق ودُرّاته فرائد عهدي
 أي شيء في الغرب قد بهر النا من جلالاً ولم يكن منه عندي ؟

ثم يشتر في هذا الضرب من القصر حتى يتذكر الجانب التاريخي فلا يرض له إلا
 بلروح الخطابي المتأخر أيضاً فيقول :

قل لمن أنكروا مناخر قومي مثل ما أنكروا ما تز وُلدي
 هل وقتتم بقية الهرم الأكبر يوماً قرئتم^(١) بعض جهدي ؟
 هل رأيتم تلك النقوش اللواتي أجهت طرق صنعة المتعدي
 حالاً لو أنتمار من قدم ألمه بدوما من لونها طول عهد ؟

(١) قرئتم = قرأتم

هل مهتم أسرار ما كان عمداً من علوم جيولوجية بردي ؟
 ذلك في التصحيف قد نأب السد ر رهنى اهنى وأنجز زندي
 قد شنت اليهود من عهد فرعون في (مصر) كان أول عدد
 أنا أم التفرع قد أخذ الزو مان عن الأصول في كل حد

الى آخر هذه الفخر ، والتصحية من الرجوة الاسلوبية قوية السبك - ما في ذلك
 ملك - وهي من الناحية الخطابية انفة حدود القدرة . فهي مألوفة للاطلاع في المجال ،
 جذيرة بأن قال التعجب من حيث قوة النظر والقدرة التومينية وبراعة الاداء . ولكنها
 من الناحية التاريخية لا تستطيع أن تهنس الى جانب جديدة شوقي ، لأذا حافظاً في محاولته
 كشف التواحي التاريخية كان سريع المرور بها لم يصور شيئاً كما صور شوقي ، وكان في
 إمكانه وهو يقول :

فتأسر البحر من بلاه صفي وسوا البر عن مزاق جردي (١)

أن رسم صوراً يعتمد ألوانها وخيالاتها من الصور التي اختزنتها ذاكرة من حياته في الجيش
 ومن قراءاته في التاريخ يأتي بصور فريدة ، ولكنه لم يوفق الى ذلك .

هذا من الجانب المصري القديم في التاريخ ، فأما الجانب الاسلامي فقد عرض له شوقي
 بكثير من التمسك نعل أو لها قصيدة « نهج البردة » التي طوخت بها قصيدة البوصيري
 وأنتهلتها بالندب ، وهي التي يقول في نظمها .

ديم على اتاع بين البان والمسلم أحز منك دمي في الأشهر العرمر

وضع فيما بعد خلال إقامته في اسبانيا قصائده التي عرض فيها للتاريخ الاسلامي
 وطبعت بعد ذلك في كتابه « دول العرب وعظمه الاسماء » نظم فيها سير رجال ما
 استعظم - كما يقول - وقد زعم في نظمها ما لا يلهو ، ولو أنه كل يرى الأنيق والأحزم به ترك
 ذلك التقيد . وبدأ هذه المجموعة التاريخية بالكلام على لغة العرب ثم انتهى فيها الى الكلام
 على دولة الفاطميين .

(١) الجزء = الجبل : ويريد الجيش البرية

ولكن شوقياً في هذه المجموعة غيره في توحي شعره الأخرى التي نجد فيها صوراً
 لبندرها حين حين أنه في كثير من قصائد هذه المجموعة أقرب إلى روح أئمة الأندلس
 وأمثالها الناجمة عن نفس الشعر وروحه إلا في أبيات قليلة وهو يقول مثلاً :
 انشأه الراشدون أربعة رضية سلمتهم مشبعة
 الصمران وابن أروى^(١) وهي في الدررة الشفاء والأوج العلي
 وليس في هذه المجموعة ما يُمدُّ تحفة فنية وأتمة سوى القصيدة التي صفاها في شعر
 فريش^٥ وهي موشحة نهج فيها سبيل موشحة ابن سهل الأندلسي شاعر أندلسية
 ومبشحة ، وهي التي يقول في مطلعها .

هل درى ذي الطي أن قد همى قلب صبٍ حله عن مكفر
 فهو في نارٍ وخفق مثل ما لست ربح الصبا بالقبس
 وقد عارضها أيضاً الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب فقال :
 جادك الفيت إذ الغيث همى بأزمان الوصل بالأندلس
 لم يكن وصلك إلا حُلماً في الكرى أو خلة المختلص

وقد أبدع شوقي في موشحته وأتى فيها بصور جميلة ، وخالف فيها التقاعده التي ألزمها
 في جميع قصائد هذه المجموعة . وقد جاء هذا الأبداع من الطور الذي نظمت فيه فقد كان
 هوقي مقبلاً بالأندلس فهو يحس بزفرة العربي على هذا التمردوس الضائع من العرب . ولذلك
 رزق له موشحة ابن الخطيب فعارضها وكان الصدى يؤوب في مسجعه^٥ . وأزعم
 الوصل بالأندلس : فحنت فيه لحنات من ملك العرب ، وبرزت له شخصية عبدالرحمن الداخل
 على أن هذه التعبيدة بالذات قد ظهرت على أفراد في الجزء الثاني من الشوقيات
 مما يدل على أنها كانت عند هوقي خلال نظمتها في مرة غير مرة زميلاتها في كتاب دول
 العرب وعظه الإسلام إذ نظمت بروح وفن مختلفين عن غيرها ، وهي قريبة في نفسها
 إلى أندلسيته المشهورة^٥ . ياتح الطالع أشباه عرادينا . . . وقد صور هوقي في قصيدته
^٥ شعر فريش^٥ قصة عبد الرحمن الداخل أول حاكم بني أمية في الأندلس . وربما كان إلى

(١) الصمران = أبو بكر ومروى ، وابن أروى = مهنا بن عقال .

جانب إعجاب شوقي بهذا البطل العربي الذي قامَ بعد أن تحطم ملك الأمويين في اشرق — في أن يقيم بنفسه لاسرته مُلكاً جديداً في الغرب — إعجاب آخر هو ما نعتل به قوة هذه القصيدة؛ ذلك أن عبد الرحمن الداخل كان شاعراً، ولعل من أروع الصور عنه تلك التي رسمها الأستاذ علي آدم وهو يقول: «عبد الرحمن الداخل وايد أيام الثورات العاصفة والذي نفاً منها ينفأ ابن الملاح فوق الزاخر الطرج وعاش صمره فوق هوارب نظارهر والثورات يصارعها وتصارعه لا تشم من صمره عبق الوحي وتفعه القدس ولا نديم فيه بروق الأفكار البعيدة الخاطفة وأضواء النظرات المترامية الشاملة. ولكن المصائب التي حلت بقومه وسارت بها الأخبار وتحديث عنها الركبان صمّت قسه وأفسحت خباله وحركت فيه عواطف الحقد والكراهة من ناحية ولكنها من ناحية أخرى أطلت به على جانب من جوانب الحياة الشعرية لأن ما رآه من تقلب الحظ وتداول الأيام وما قاساه من الآلام بصره رواية الحب البشرية في فضولها المختلفة وجمله يعرف الخفاء ويحس الألم، فن رقيق صمره تلك الآبيات التي أرسلها إلى أخته بالاسام ويقول فيها:

أيها الزاكب الميمم أرضي اذر من بعضي السلام ليمضي
 إن جسي كما تراه بأرضي وفترادي ومالكيه بأرضي
 قدر الين بيننا فافترقنا وطوى الين عن جفوني فمضي
 قد قضى الدهر بالفرق علينا فمضى باجتماعنا صرف يقضي^(١)

ذلك من أسباب تمليلنا لقوة قصيدة شوقي ... فشوقي شاعر وعبد الرحمن الداخل شاعر. وهو قى بعيد عن وطنه اتخذ من الأندلس وطناً آخر يقضي فيه سنوات تقيه وقد ترك أمه في مصر بعيدة عنه؛ وعبد الرحمن بعيد عن وطنه هارب من أعدائه قد فارق أهله بأشردين وقد تلى عمرهم فاتجه مزمراً خاطراً صوب المغرب ثم إلى الأندلس وفي نفسه آمال ... فكان من كل ذلك عونٌ لشوقي على أن يرسم لهذا العبقري الذي وفد على الأندلس وقد أخذ الخلاف مأخذه هناك فاستطاع أن يثبت أقدامه وأن يرمي دعائم ملكه، ذهب في

(١) كتب « سفر ليشي » — من ١١٢ — للاستاذ علي آدم، أصدرته مجلة « المتنظف »

الوقت الذي هيأته الأقدار المثلث لثري أن يظل في السلم الغربي مشهوراً الفراء فكان
الأقدار اختارته لهذا وأرادت بأن يربح خيراً فقد:

رُحِموا بالمبتري أنساب البعير الهمة الصعب التباد
مدا في التفتح وفي أنساب لم يقف عند بناء ابن زياد

ومن ثمَّ يعلينا شوقي صوراً جميلة لهذه البطولة الفذة . ومن روائحه تلك العبرة التي
تغلل الداخل وهبوني رحلته :

سلام يا شرافاً ما درى ما عليه من حياه وسخاء
في جناح الملك الروح جرى ويرجع حننها اللطف رُخاء
فل اليم جراحات الثرى ومعا العدة من يحصر الرخاء
دل درى أندلس من قدما داره من نحو بيت المقدس
بكيل الأثريين سما فجع موسى يستقر الأوس

وعنه القصيدة هي من روائحه شوقي في التاريخ .

فإذا التفتنا ناحية حافظ لثري أثر التاريخ الاسلامي في شعره وجدنا له قصيدة نظمها
عام ١٩١٨ من تاني الخلفاء الراشدين اتقاروق عمر بن الخطاب ، ولم يتبع فيها طريقة شوقي
من حيث نظمها من باب الجز بل جعلها كلها من تأنية واحدة بلغت أكثر من ثمانين
ومائة بيت . غير انه لم يأت بشيء مبتدع فأنت لا تتبع فيها على وثبة خيال أو لمعة ابتكار
فهي أقرب الى السرد الاخباري الراوي منها الى الفن القصصي العمري .

فهو يقول منها في إلام عمر :

ويوم أسلت عز الحق وأرتنمت عن كامل الدين أنقال يعايبها
وصاح فيه (بلال) صبيحة خدمت لها القلوب ولست أمر باربها
فأنت في زمن (الختار) منجدها وأنت في زمن (الصديق) منجبها

وعنه القصيدة كلها من آثار صبيحة حافظ للإمام محمد عبده ثلاث حبيسة نفسه حتى

وجدت فرصة تكويدها . بقول الأستاذ عبد الحميد انبادي بك : « ولا نسوي بالذمة الباعث لحافظ على نظم قصيدته ، فلعل الباعث له ما رآه من التباث حال العالم الاسلامي إثر الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة ، فأراد أن يجلو عن ناقلين صورة لأفق شخصية ظهرت في الدولة الاسلامية ، وهي شخصية عمر بن الخطاب ، فيكون لناشئة منها مثال يحتذون وينسجون على منواله . وقد يكون حافظ أراد بنظم هذه القصيدة أن يحث في عبار شوقي ، ولا سيما بعد أن نظم شوقي نوح البردة » (١)

نعم قد يكون التحليل الثاني الذي أشار إليه الأستاذ العبادي بك هو الباعث لحافظ على نظم قصيدته المعربة . ولكن هل استطاع أن يحث في عبار شوقي ؟ الحق يؤمننا أن تقول إن نغائده شوقي في التاريخ الاسلامي منذ أنشأ نوح البردة حتى نظم مجرسته في دول العرب ترتفع عن المستوى الذي جرى فيه حافظ بالرغم مما في الجموعة الأخيرة من بُعد من روح شوقي الفنية . ولكن الحق يؤمننا أن تقول إن حافظاً قد بلغ في « مجرسته » قايته في ذقة النظم وسبك العبارة .

من الشعراء

أما وقد انتهت من الموازنة في نطاق محدود بين آثار حافظ وشوقي في بعض النواحي التي اهتمت فيها أو تقاربت صورة المشاركة ، فقد وجب عليّ أن أضم درامتي هذه بكلمة وجيزة من فن هذين الشعراء .

أول ما يلاحظ على فنّ شاعرنا المادية التي لم يستطيعا أن يبرأا منها حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقدّ أن تصور صورها منها . فشوقي مثلاً — وهو أقل من صاحبه انهماساً في هذه الناحية — حين يصف منظرًا طبيعيًا لجرّان الماء وخبره بعينه كأنه وضح العروس تبينه وتصينه . وانكس شوقيًا كان يتعه صوب الخيال في كثير من فصائده

(١) مجلة « الكتاب » — ص ١٥٨٠ الجزء العاشر — أكتوبر ١٩٤٧ ، السنة الثانية .

وبخاصة ما كان متصلاً بالضبيعة ، حتى أن اتجاهه ناحية الظلال لم يكن استغراباً في العبوية ولكنه كان افتتاناً حبيباً أكثر منه إحساناً ورحباً .

وتأتى التفات شوقي إلى المعاني خاصة من خصائصه وإن كانت معارضاته لتعائنه الشعراء الأقدمين وحبه في أول أمره أي الغريب من أن يلفظ ينساق عليه جيّراً فسيده ، على أنه لم يكن يهتم ، كل الاهتمام ، باللفظ قدر اهتمامه بالمعنى — وإن كانت أكثر معانيه مما دارت في قصائده قديمة — ولذلك إن تحسّ في قصائده أن الشاعر كان يتكلم ذهنه ساعة نظم قصيدته وفي ذلك يقول مطران بك « لا يهيد فكره ولا يكفّه في معنى أو معنى » (١) وإن بدأ لنا كدّ الشعر في بعض أبيات قصائده التي عتسى نفسه فيها بالتميد بالألف العريضة . ومن حسن الخط أنه يبدو أن شوقياً كان يحسّ أن هذا مخالف لطبيعت النسبية فعمل على التخلص منه وعلى متابعة وحي طبيعته . ويرى الأستاذ البشري أنه « إذا كان لهذا الشاعر صنعتة أو كان له في شعره ما يمدُّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، ثان وأتى اللفظ ولأن واسع وأشرق وإلاً فلأمّ هذا اللفظ الهبل » (٢) وهو في ذلك على التقيض من حافظ الذي كان يلفظ التوري الخطوة الأولى في فنه ، أما المعاني فتجسّد في الدور الثاني أو الأخير . وقد قال هو نفسه « ... أما أنا فأصبتُ المعنى إذا لم يتفق لي لفظٌ رائع » (٣) ... وهذا مصداق لما أشار إليه صديقه مطران قبل ذلك بسنوات بمقدمة حين قال « إنه في أقصر ضحيره يؤثّر البيت الجاه لفظاً على الجاه معنى » (٤) ... ولهذا جاءت ديباجته أقوى من ديباجة كبار من معاصريه ، ولقد قويت هذه الديباجة تبعاً لتلبية حافظ من ناحية ، ومن ناحية الأخرى

(١) من كلمة للأستاذ خليل بك مطران في « مختارات الزهور » التي أصدرها الزهور الأستاذ انطون

الجبل (بكاء) سنة ١٩١٤ — ص ٢٠ طبعة طبعة للطراف

(٢) كتاب « المختار » للرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري — ص ٨٦ من الجزء الأول —

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥

(٣) من حديث حافظ مع محرر مجلة « الهلال » صفحة ٩٠٧ جزء ٨٠ (يونيو سنة ١٩٢٨) السنة ٣٦

(٤) صفحة ٨٠ من « مختارات الزهور » التي أشرنا إليها

للجاناب الذي وقف منه فيه وهو مخاطبة الجماهير في قضية سياسية محتاج الى انقضاء التنوير المثير الجذّاب على أن لا يكون فيه إغراب ، ومن فذلك كان يكادُ ذمته ليقع من محفوظه حتى يفتنه . وقد قال عنه البشري إنه « من اختلف النخلة في شعر حافظ وفي شاعريته فأنهم لم يفتروا قط في أنه كان من أمهر النباغة في هذا الزمان » (١) ... أما شاعريته فكما بقفتة وقية لا يصل فيما غير عقله الواعي . والشعر عنده وسيلة على التقبض من شوقي الذي كاد الشعر عنده - في رأيي - غاية ، وثمة فرق بين الاتجاهين ، وإذ كانت الاخيلة عند الشاعرين - كما قلت - مادية بحثة . ولكن فوقباً كان عند ما يحسُّ أن المادية طاغية على أخيلته ومعانيه وأنها تضايقه في بعض الأحيان ، يحاول أن يصرِّفها فينبه صوب الدين لينظم قصائده في ديوانه الرسول وفي تحية العام الهجري وما شابه ذلك ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستنبح الترار عن طبيعته لأن هذه الاخيلة كانت تلاحقه أيضاً ... أما حافظ فلم يستطع الاقفلت من قيود ذهنه ومن التكررة القديمة السائدة عن معنى الشعر وطبيعته وتنامى أن الشعر على حد قول الدكتور أبر شادي « روح ونصوف أي اندماج كوني في الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر » (٢) وللك ظل حافظ لا يحميد عن طريقه ولا يتجه اتجاهات جديدة أو يحاول محاولات جريئة بل ظل يتابع ظلّ الاقدمين دون أن يتمنى أو يتناول أحاسيس النفس البشرية فيخلق من الصور القائمة لها ، وقد خبها تماماً ، سواداً رائعة خالدة تمثل نسيات الناس لا تقسيته هو في صمي وتحليل وكشف عن خبايا تلك النفوس وآلامها الخفية لأن المصاحبة كانت كما يقول الأستاذ الزيات « من أبين خصائص حافظ » (٣)

من لامل الصرقي

(١) من مقال للدكتور الشيخ عبد العزيز البشري بمجلة « أبوولو » من ١٣١٥ هـ العدد ١١ (يوليو سنة ١٩٣٣) من العدد الأول

(٢) من مقال للدكتور أحمد زكي وشادي عن حافظ في مجلة « أبوولو » من ١٣٦٢ هـ من العدد

المسار إليه

(٣) كتاب « في شعر الادب » للاستاذ احمد حسن الزيات صفحة ١١٠